زينب نوفل
رِواية
رنة خُلخال

رِواية قصيرة بعنوان: رنة خلخال

بقلم: أنين الحنين

الكاتبة: زينب نوفل

أعيش في همٍ ويأسرني *** شوقٌ وأطيافٌ من الماضي تحاصرني

أتنفس غبارَ الأسى وأعلم***أني كجذعٍ مقطوعٍ من شجرةٍ توفيت عني

لاكرامتي للشكوى تُلجئني***ولاهيبتي لذرف دموعٍ متحجرة تتركني

تجمدت مشاعري فما عاد *** يظهر لعبدٍ من عباد الله شيءٌ يقهرني

مررت باالالام وحدي وصحِبتُها*** فصاحَبَتني ولا في أي وادٍ مررت به إلا
رافقتني

لما تركت الأرواح المهاجرةُ***روحي تطوف في هذي الدنيا دون سَبقٍ ولم
تودعني

****

كان يوماً ماطراً ...والرياح فيه قوية ...عاصفة...تتلامس أطراف كل شجرةٍ وأختها من شدتها ...قد خالطت مياه السماء المنهمرة...تراب الأرض فصنعت وحلاً ...يُصَّعبُ الخطو عليه...صوت الأبواب المغلقة يرتج من شدة تلك العاصفة ...يركض الرجال بأنعامهم عائدين من أراضيهم الزراعية ...خوفاً من ذاك الجو العاتي...ونسائهم قد ساقوا البط والدجاج والإوز إلى عششه الطينية...صدحَ أذان المغرب فحضر الصلاةَ من قُدِّر له حضورها ...وجمع الشيخ ما بين صلاة المغرب والعشاء لصعوبة الحضور

إليها، وبعد وقت العشاء...سكنت تلك القريةُ الصغيرة ...وانعدم الصوت فيها ...فلم تبقى سوى معزوفة الرعد المخيفة ...وصوت المطر الغزير ...وضوء البرق اللامع في يوم غاب فيها القمر وراء الغيوم ...ولم يعد لبشر على سطح أرضها وجود ...غُلِّقَت الأبواب ...وأغلق معها اليوم بأكمله ...كل ينعم بدفيءِ مضجعه ...أو دفءِ حساءٍ أعدته له زوجته ...أو يدٌ لأمه ربتت على ذراعه ...لتنسيهُ خوفه على فسادِ محصوله بسبب تلك العاصفة الهوجاء العاتية...بعد الساعة الثانيةِ عشرة عاد هو إلى قريته النائمة

في سبات عميق منذ ساعات...وهو يحتضن حقيبته الجلديةَ السوداء ...التي تحوي أدواته الطبية...وبعض من الأدوية... ويضمها إلى صدره بيده...كان يمشي بحذرٍ شديد لئلا يسقط في الأرض التي أصبحت معجونةً بالوحل ...وصل أمام عتبات داره ، وفتح حقيبته بحرص وأخرج من داخلها مفتاح بيته البسيط...أدخل المفتاح في ثقب الباب وأداره ...ففتح ، ولج إلى الداخل وأشعل الضوء ، ثم أسقط من حول رقبته شاله الصوفي ...وخلع عنه ملابسه الخارجية المبتلَّة ...ووضعها في طستٍ أمام الباب الداخلي لبيته...تثائب بقوة من رغبةٍ كبيرةٍ في النوم...بعد ذلك اليوم المرهق الذي بدأه في تمام السابعة ولم يعد منه إلا بعد منتصف الليل...ولكن صوت معدته الخاوية...أزعجته

وذكرته بجوعه الذي كان يحاول تناسبه من شدة تعبه ...ذهب إلى المطبخ يبحث عن شيءٍ يأكله سريعاً ولكنه لم يجد سوى حبتين من الباذنجان ...والطماطم ...تنهد بتعب فلم يتسنى له شراء طعامٍ من أحد المطاعم في طريقه بسبب العاصفة...مضى نحوهم والتقطهم ...وسارع في تقطيعهم لشرائح ، أحضر إناء ووضع فيه قليلاً من الزيت وأشعل عليه النار ، وضع بعض فصوص الثوم المقشور ، والفلفل والطماطم والباذنجان وبعض الملح...ثم سخنَ رَغيفين من الخبز وانتشل الإناء من على النار بعدما نضج ...أوقد النار على إبريق الشاي وما أن بدأ في الغليان حتى رفعه وصبه

في كوب زجاجي ، تناول طعامه في عجَل ، ثم تناول دفتراً له يدون به كل حالة جديدة قابلته...ليتسيغ له التعلم منها إذا ما قابلته مثلها يوماً ما ...أنهى كتابته ، ثم انسدح على فراشه بتعب ، حانت منه التفاتة إلى كرسي من جريدِ النخيل موضوع في الركن الداخلي للغرفة ...كانت تجلس عليه والدته دائما حينما كانت تغزل له هو ووالده الجوارب والشيلان الصوفية في الشتاء...وقع ناظره على ذراع الكرسي الملفوف حوله شال أبيه ...التي لم تكمل والدته غزلَه ، ومنعها أجلها من ذلك ، كما منع نفس الأجلِ أيضاً أباهُ أن يرتديها ...تنهد بمرارةٍ وهو يتذكر فاجعة موتهما ،

حينما أصيب والده...بسرطان في الرئة...أدى إلى وفاته ، وتلته والدته التي أصيبت بغيبوبة السكر بعد وفاة زوجها ، ولم تستفق بعدها أبداً ...وعلى الرغم من كونه طبيباً إلا أنه لم يستطع إنقاذ والده الذي كان مدخناً شرهاً ، ولا والدته التي كانت تعاطى الأنسولين بين الحين والآخر...

هجر غرفته واستقر في غرفتهما بعد وفاتهما ، يعيش على ذكراهم وتحيطه أطيافهم المتجسدة بصورهم ، وتتخلخل إلى مناماته...لتصبرَهُ على حياةٍ شاقَّةٍ صعبة يجتازها بمفرده ...يعاني فيها من الوحدة على الرغم من كثرةِ المحيطين به، وما ان يدخل بيته عائداً من المشفى الذي وظف به حتى تحتضنه وحشةٌ أحدُّ وطأةً من وطإةِ القبور...

نام بعد ساعة من التفكير المجهد...والألم الذي غزا مضجعه...ليتجدد لقاءه بكوابيسه التي تنتظر بشوقٍ التقاء جفنيه ...استيقظَ فزعاً كعادته منذ سنين...منذ غادره الأحباب ، وهجر هو الأصحاب...ليكون منفرداً بأحزانه لا يقطع خلوتهما شيء ، كانت الساعةُ السابعةُ والنصف صباحاً حينما استيقظ ...زفر بضيقٍ لعدم استيقاظه لأداءِ فريضة الفجر ، صلى الصبح ...و تجهز للخروج ، حمل حقيبته...وسمعَ طرقاً على الباب الخارجي ...فتحه...وابتسم ابتسامة لا يُرَى فيها إلا منابع الحزن لتلك القابعةِ أمام الباب بقامتها القصيرة...و عباءتها الباهتة ، وإيشارب وضعته على شعرها وعقدته من الأمامِ مثبتةً إياه...وخصلة هاربةٌ

من خصلات شعرها الذي قد اشتعل الشيب فيه تدلى على جانب وجهها ،وحذاء من البلاستيك الرقيق في قدميها...
ابتسمت له تلك المرأة العجوز ،وقالت :
(صباح الخير يا باسم يا بني...معلش اتأخرت عليك...وامبارح معملتلكش العشا...كانت بنتي بتولد وكان لازم اكون معاها...حقك عليا يا دكتور) .
رد عليها باسماً يطمئنها ، وقال :
(متقلقيش يا حجة أنا أكلت ...المهم الحمد لله ع سلامة بنتك و ...)
ثم مدَّ يده داخل جيب معطفه الأسود ، وناولها ورقتين من المال ...وضعهما لها في كفها ، نظرت له بإحراج ، وقالت:
(ليه يا بني لسة الشهر فاضل عليه أسبوع...أنا مش عاوزاهم دلوقتي)
نظر إليها وابتسم ، قائلاً:
(لأ دول للبيبي الجديد ...ألف مبروك ، أظن دا أول حفيد ليكي يا حجة مش كدا ؟!)
هزت برأسها إيجاباً ، وابتسمت قائلة :
(آه يا بني ...كتر خيرك يا دكتور)
ثم مدت كفيها وهي تدعوا قائلة :
(ربنا يفرح قلبك ويسعدك يا بني...ويريح بالك ، ويعوض عليك ...ويفتح أبوابه ف وشك قادر يا كريم)

ابتسم لها وأمن وراء دعاءها ، فماذا يحتاج هو من الدنيا زيادةً على ما دعت له به .
قالت هي في حنان:
(طب يبني قول عاوزني أعملك ايه النهاردة ...أنا مجيتش امبارح وزمان الدنيا خربانة)
قال لها بتوجس :
(طب هو انتي مش هتروحي لبنتك النهاردة ولا ايه)
أجابته قائلة :
(لا ي دكتور ...أنا هبيت معاها لما الدنيا تليل...قولي على اللي انتا عايزه... اطبخولك ولا اغسله)
رد عليها بإحراجٍ وقال :
(اعملي أي أكل مش مشكلة ، بس معلش في ...هدوم مبلولة من الشتا يا ريت يا حجة بس لو تغسليها وتُنشريها..)
أومأت له ، فقال:
(انتي طبعاً معاكي النسخة التانية من المفتاح...همشي أنا بقى عشان متأخرش)
أفسحت له الطريق ، وقالت :
(معلش يا دكتور عطلتك ...تروح وترجع بالسلامة يا بني ...ربنا يجبر بخاطرك)
ألقى السلام عليها ، ومضى في طريقه...راجياً أن يلتقي بأي مواصلةٍ تقله إلى موقع المستوصف...

كانت آثار العاصفة لا تزال عالقةً بالأرض...وما زالت السماء مليئة بالغيوم المنذرة بمطر قريب لربما اليوم او بعد يومين ...أو ثلاث .
مضى يومه عادياً جدا كبقيةِ الأيام ، إلا أنه قد عاد في ذلك اليوم باكراً لحسن حظه ...فلم يكن المشفى مزدحماً بالمرضى كالليلة السابقة...دلف إلى منزله الذي قد عبأته رائحة زكية ...علم فوراً أن تلك السيدة العجوز التي تقضي له بعض مستلزمات المنزل ...من تنظيفٍ وطهوٍ وغسيل...ويقاضيها في نهاية الشهر على ذلك ...هي السبب فيها...كم تذكره تلك السيدة بوالدته جداً...فقد كانت لها لمسة حنونةٌ في كل شيء حولها...
سحبته قدماه نحو مصدر الرائحة...فوقف أمام الموقد المطفأ...وفتح غطاء القدر ...فوجد أرزا وفوقه قطعٌ من

الدجاج تنبعث منه رائحة زكية...فرغ بعضا من الطعام المصنوع في أطباق ...وجلس يتناول طعامه...في وحدةٍ مميتة...مع كل لقمة يتناولها يلتقم معها غصة مريرة ...كم تمنى من داخله أن يشاركه أي أحدٍ حتى في طعامه...ولكن الأنس لا يطلب إلا من الله ...صدحَ صوت المؤذن يعلن عن موعد صلاة العشاء ...قام وتوضأ...وارتدى نعله وخرج قاصداً المسجد...أقام الإمام الصلاة وكان هو في الصف الأول وراء الإمام مباشرةً...سلم الإمام منهياً صلاته وسلَّم

وراءه كل المصليين ، وما أن انتهت الصلاة...حتى دخل رجل يبدو عليه الفزع والهول...وهو يصرخ في الناس في المسجد وهو يقف في منتصفه ...ويقول :

(ياجمااعة ..بالله عليكو لو في حد هنا دكتور ..أو ممرض يلحقناا ابنييي بيمووووت "

هرول هو إليه...بكونه طبيباً وقال:

(في إيه اهدى يا حاااج...قولي طيب)

نظر إليه الرجل ، وعلامات الهلع على وجهه:

(أهدى إيه يا بني بس...بقولك ابني محلتيش غيره...يا جمااعة محدش هنا دكتور ...؟!)

نظر إليه بهدوء ، وربت على ذراعه مطمئناً وقال :

(أنا دكتور ...قولي في إيه بس يا حاج...وإن شاء الله خير ؟!)

نظر إليه الرجل بفرح ، كمن لقيَ نجاته أخيراً وقال بأمل:

(طب بالله عليك يا بني تعالى معايا...شوف ماله كدا)

ثم سحبه من ذراعه وانطلق إلى بيته أولاً ليحضر حقيبته الطبية ، ثم أكمل مسيرته الى بيت الرجل برفقته ...ليسمع امرأة تصرخ وتبكي ، قائلة :

(آه يا بني فوق يا حبيبي مليش غيرك...آآآه متاخدهوش مننا يااارب)

دلف الرجل بسرعة إلى الداخل ، وهو ممسك بذراع باسم في يده...فوقع ناظره على شاب في سن العشرينات ، مستلقٍ بلا

حيلةً على الفراش، تحتضن والدته رأسه...دفع الرجل امرأته بعيداً عنه ...ثم نادى على باسم بلهفةٍ قائلاً:
(يلا يا دكتور بالله عليك ...دا ف مغمى عليه بقاله ثلاث ساعات مبيصحاش ...كنا بنحسبه نايم)
توجس باسم لما قال الرجل عن ابنه ، فجثى على ركبتيه...أخرج السماعة...وأصبح يجسُّ نبضه ...فوجد النبض خفيف...لاحظ تعبيرات وجهه ، فوجد إحدى شفتيه منحنية بشكلٍ ملفت ، تنهد بألم ، فيبدو أن شكه في محله...لقد أصيب بجلطة دماغية ، أخرج قلما وورقة...و كتب عليه اسم لدواء ما وقال :
(هات دي بسرعة من صيدلية الدكتور محمود...ممكن نلحقه)
نظر إليه الرجل بفزعٍ وقال :
(ليه يا دكتور ..هو هيموت ولا ايه ...؟؟؟!!!)
وبدأت إمرأة الرجل بالصراخ ، مرةً أخرى مما أدى إلى توتر باسم...بسبب هذه المسؤلية التي وقعت على عاتقه ، فهذه أول مرةٍ يوضع تحت ضغط كبير إلى هذه الدرجة ...ولا طبيب آخر غيره في القريةِ يسانده في هذا الذي هو فيه كما في المشفى الذي يكون مملوءاً بالأطباء والممرضين ، أجابه يحاول الثبات ،وإبعاد التوتر عنه :
(لا متاخفش ...إن شاء الله هيكون كويس...هات دا بس بسرعة)

عاد الرجل بعد عشرِ دقائق ، حاملاً في يده الدواء ، تنهدَ باسم بقوة ...وحضر الحقنة ...ثم غرزها في وريد الشاب...وركب له محلولا معلقاً ، ولكن لا إستجابة...فبدا له ان الأمر ليس هيناً أبدا...نظر إلى أوجه المفزوعين حوله وقال لهم :

(احنا لازم ناخده دلوقتي ونوديه على أي مستوصف أو مستشفى ، وهما هيعملوا اللازم)

قال الرجل باستنكار:

(يا دكتور انتا عارف ان المواصلات زفت هنا هنعمل ايه مفيش غير عربية بتاعتي اللي بيسحبها الحصان دي حضرتك عارف الظروف هنا...)

تنهدَّ باسم بقلةِ حيلة ، فحال بلدته سيئة جداً ، والخدمات تكاد

تكون معدومةً ...فلا مشفى فيها ، والمواصلات قد تحضر كل ثلاث أو أربع ساعات...هذا أن حضرت أصلا ...ولا توجد إلا صيدلية واحدة فقط ، موجودة في أول القرية...ليس صاحبها الصيدلاني هو من يجلس فيها ...بل رجل..يتخذ هذه المهنة مجرد هوايةٍ لا أكثر ، يستطيع قراءة أسماء الأدوية...وهذا لا بأس به فهو يفيد في كثير من الحالات الضرورية كحالة هذا الشاب...

(مش مشكلة يا حاج أهم حاجة نلحقه ...استقلوا تلك العربة التي يجرها الحصان ...وقد ضمت المرأة رأس ابنها

بذراعيه ، وهي تبكي وتتمتم بعبارات لم تصل إلى مسمعيّ باسم ...الذي كان يرجو من كل قلبه أن تمضي هذه المصيبة على خير ...فحال الشاب ليست جيدةً أبداً ...وصلوا بعد فترة إلى المشفى الذي يعمل به باسم ...حمل باسم الشاب على ذراعيه...ومضى به إلى المشفى ...وضعه على سرير ما ونادى أحد الممرضات لتساعده...ذهب به إلى قسم الأشعة ليتأكد من شكوكه...وقد كانت صحيحة ، فقد تخثرت نقطة دماءٍ في رأس ذلك الشاب الذي لم يتجاوز عمره الخامسة والعشرين ، طلب باسم نقله إلى غرفة العمليات...التي وبعد محاولات عديدة لم تقدم يأي شيء..وكان دخوله إليها كعدمه ...نقلوه بعد خروجه من غرفة العمليات إلى غرفة العناية المركزة...
ظلَّ بها ذاك الشاب ثلاثة أيام بلياليهن...بلا أدنى تحسن ،

ولا بصيص أمل...يساعد باسم على إيجاد حلٍ لهذه المعضلة، رحمةً بوالديه وبه ، وفي بدايةِ اليوم الرابع...كان باسم قد خرج إلى المشفى باكراً...كعادته منذ دلوف ذاك الشاب إلى المشفى ؛ ليطمئن عليه ...وصل بالقرب من غرفته وسمع صراخاً من داخلها...ركض بسرعةٍ إلى الداخل ...ليجد المرأة تمسك بقميص ابنها الخاص بالمشفى وتصرخ بهلع...و الممرضة تغرز إبرة مهدئة في وريدها ...فتترنح المرأة وتسقط بين يديها ...وصوت الجهاز

المتصل بالقلب يعلن عن نائبةٍ قادمة ...و الطبيبين ماجد و علّام يتناولان على جهاز الانعاش...بلا فائدة ...
(واحد ...اتنين...تلاتة...) ثم ينتفض الشاب بين أيديهما ، وبلا فائدة ...
(واحد ...اتنين ...تلاتة) يصدح بها علَّام مرةً أخرى ، ليضع ماجد الجهاز على صدر الشاب مرة أخرى ...ولكن هذه المرة ليس الشاب هو من ينتفض بين أيديهما ، بل جثته...فقد صعدت الروح إلى باريها...وانتقلت من دار المتاع إلى دار القرار...وانتهى كل شيءٍ يخص ذلك الشاب...لأول مرةٍ يشعر باسم بضيقٍ كبيرٍ في صدره بعد موت أحد المرضى الذي كان هو مسؤول عن حالتهم...ليس هو أول مرةٍ يموت أمامه أحد...طبيبٌ جراحٌ مثله في مشفى كبيرمثل هذا المشفى لربما يتعرض لمثل تلك الفاجعة يومياً ، أو ربما في اليوم أكثر من مرة ...ولكن تلك المرة شعر

باختناق..وعدم راحة...وكأنها نائبةٌ صغيرة تنذر بنوائبٍ أكبر منها في القريب العاجل...

.

. .

.

كانت الأجواء هادئةٌ أكثر من اللازم ...أكثر من فترة الخطر التي كان فيها في الأربعة أيام السابقة...كانت والدة الشاب

نائمة على كرسي وبجوارها الممرضة ، بعدما أعطتها الحقنة المهدئة ...أما والده..فحسب ما قال لي علَّام أنه كان قد خرج ليحضر طعاماً له ولزوجته ، ولم يعد حتى الآن ..ولكن ما هي إلا دقائق وعاد...وأظنه عرف بموت ابنه ...ولكنني لم أتوقع ردةَ فعله أبداً لم تكن نظرته حسرةً أو ألماً أو حتى شفقة لتلك المال التي هم فيها ...بل كانت نظرة حقدٍ وغلٍ وكره ...ورغبةً في الانتقام...حاولت تكذيب عيني...واحساسي الذي لم يخطئ يوماً ، ولكن لم أستطع... قد كانت تلك النظرات موجهة إليَّ أنا ، ومصوبةٌ نحوي ، أنسي الحال الذي فيها ابنه..أم أن هذا من شدة ذهوله...أكد احساسي الذي كنت احاول تكذيبه ، ودفع الشك عني ...دخول تامر في ذيلِ الرجلِ ، يربت على ذراعه وينظر إلى بحقدٍ وتشفي...علمت حينها أنه قد وسوس في أذنِ الرجل بإحدى وساوسه الشيطانية، وليس ببعيدٍ أن يكون قد أخبره أنني أنا من كان السبب في موت ابنه ...ذاك هو

عدوي اللدود...الكارهُ لنجاحاتي
الذي هو دائماً على أهبة الاستعداد أن يدفع عمره كله في مقابل أن ينتقم مني ...وسبب هذه العداوةِ هي ابنة خالتي الوحيدة...التي لم ليس لدي احدٌ من الأقارب
غيرها...والداها...ماتا في السنة التي تسبق موت والديّ

...ومن بعدها لم أسمع عنها أي شيء ...بحثت عنها كثيراً جداً ، ولكني أيضاً لم أجدها... ولا أعتقد أيضاً...أنها قد رجعت إلى بيتهم القديم في نفس للقرية التي أقطن بها ؛ لأنها تعلم رغبة تامر في الانتقام مني فيها ...بعدما تقدَّم لخطبتها مراتٍ عديدة وقد كان يضم في قلبه مشاعرَ كبيرة لها ، حيث تعرف عليها في المشفى ف بداية توظيفها كممرضة...كان بدايتها تحت يدي كانت مساعدتي...وهذا برغبةٍ مني لحمايتها ، وإبقاءها تحت مراقبتي الدائمة ، كم كنت أخاف عليها بشدة ، وكم كانت هي متعلقةً بي منذ طفولتها...رآها تامر معي ...وكان يود الإحتكاك بها بشدة ، ولكنها كانت تكرهه ، كما كنت أنا أنصحها دائما بالابتعاد عنه ، فنظراته لها لم تكن تطمئنني البتة ، رفضته عدة مرات ، تحت إصراره الكبير عليها...وكنت أشعر دوماً بأنه يخوض تحدياً معي (من سيفوز بها منا) كان يظنني أكنُّ مشاعر لها في قلبي ، ولكن تولَّد ما كان يظنه...بعدما دخل هو في حياتنا واراد سرقتها مني ، هذا الذي سميته أنا بهذا ، هو كان سبباً

لأعرف أنا حقيقة مشاعري تجاه ابنة خالتي بحور ، فقد كنت أحسب انني كنت أتضايق من اقتراب تامر منها بسبب اني اريد حمايتها ، ومجرد خوفٍ عليها منه ، لكن الأمر كان أعمق من ذلك بكثير...أما عن سبب كرهه لي ورغبته المتواصلة في إيجاد أي فرصة للانتقام مني فبدأ ...منذ أن

كنت جالساً مع بحور ذات يوم في غرفة مكتبي في المشفى ...وكنت أحذرها منه وأقنعها بالابتعاد عن طريقه أو الاختلاط به ، وأخبرتني هي حينها بكرهها له
وللأسف...سمع هو كل هذا...ودخل الغرفة علينا بهمجية ...وألقى علينا بوابل من التهديدات والسباب حتى استقرت في ذهني إحدى تهديداته التي قال فيها : " أقسم بالله يا باسم ...لأحرق قلبك عليها...وما هتعرفلها مكان ...وبكرا تقول تامر قال...أما بقا اللي الهانم بتكرهه دا أما يتجوزك غصب ويكسر رأسك الناشفة دي ساعتها ابقي اكرهيه بحق وحقيقي ...!"
لم أهتم لما قاله كثيراً ، وكنت أحسب أنه مجرد تهديد ، حتى جاءت إلي رسالة ذات يوم مع أحد الفتية الصغار...ففتحتها وقرأتها ، وحينها فقط تأكدت من أن تامر سينفذ تهديده لا محالة...فكان قراري الفوري حينها هو : إرسال بحور إلى والديها في القاهرة...التي تبعد مسافة اثنا عشرة ساعات من قريتنا ...وعلى الرغم من اعتراضها فقد كانت متعلقةً جدا بحياة الريف ...وارسالي لها كان وكأنني أرسلها إلى

الموت...ودعتني بدموع حارةٍ على خديها...وشهقات مكتومة كومتها داخلها ، وكلمات مهتزةٍ خرجت من داخلها لم أفهم كثيراً منها : " اوعددنييي ...مممتححبشش

...حد...خاااالص...غير...أنااا ...انااا...متنسانيش ...باسسسسسسييييممم " .
كانت هذه الكلمات اخر ما سمعته منها ...وبعدها صرخت باسمي ...وصرختها نزعت معها روحي ...وسافرت معها ...ربطت على قلبي بعدَ فراقها سنةً كاملة لا أبعث لها إلا الرسائل بواسطةِ البريد ،ولا أسافر لازورها أبداً ...كان السبب الوحيد الذي منعني وحرمني من أسافر وازورها ، واطمئن عليها هو تامر ، لأنني كنت على يقين بأنه ..يعرف كل تحركاتي ، وكنت أنا شغله الشاغل ، ودخل علي بعدها المكتب أيضاً وهددني أنه سيجدها يوماً ما...وليس ببعيد أن يتبعني إذا ما نويت السفر إليها...وليس صعباً على شخص مثله كل طموحه الانتقام...أن يعلم وجهة سفري ، انقطعت عني كل أخبارها منذ ذلك الحين ...كانت هي حينها في التاسعة عشرةَ من عمرها تحت التدريب...أرسلت لها الكثير من الرسائل لم تجبني ولا بواحدة ...كم كنت مقهوراً على هذا الفراق...الذي كنت مرغما عليه...وتساءلت كثيراً أأهدي أنا روحي على طبقٍ من وَرِقٍ للجلاد ليفتك بها ... ما طمئنني بنسبةٍ صغيرةٍ وهدأ قليلاً من روعي...هو رد خالتي على الرسائل التي ارسلتها إليها ...أعلمتني أنها

وصلت بالسلامة ، واعلماني بعدها بفترة طويلة أنها حصلت على وظيفة في إحدى المستشفيات الغير حكومية ؛ فعرفت

حينها أن تلك الفترة التي سبقت تقديمها للوظيفة لم تكن قد تجاوزت هذا الألم ، لم أعلم هل كان ألمها...على فراق أمي ...التي هي خالتها ، أم فراق صحيباتها ، أم فراق جدها وجدتها ، أم فراق الريف الذي كانت تعشقه ، أم فراقي أنا !!!!

لم أعلم طوال تلك السنة التي غابت هي فيها للمرة الأولى عن ناظري ...أنني قد ربطت على قلبي بأغلالٍ من لهب ، كلما شددت عليه احترق فؤادي شوقاً ولوعة...في غياب الغالية ' بحور '

بعد تمام السنة ، وبعدما خمد موضوع تامر قليلاً قررت أن أسافر إلى القاهرة...وصلت فجر اليوم الثاني قاصداً بيت خالتي ، وصلت أمام الباب...وطرقته كثيراً ، ولا من مجيب...خرج لي أحد الجيران الذين يسكنون في نفس العمارة في الشقة المجاورة لشقة خالتي ...وقال لي بألم :

(إنت بدور على حد يبني ...؟؟؟!!!)

أومأت له وقلت بلهفة :

(أيوا يا يا حاج ...بيت المهندس ربيع المنسي).

تلألأت الدموع في عينيه وقال بصوت مختنق :

(هو انتا كان لك فلوس عنده ولا ايه ؟!)

نظرت له باستغراب ، وقلت نفسراً :

(يا حاااج دا جوز خالتي...ودا بيتهم ...أنا جاي ازورهم ما

شوفتهمش من سنة)
قال الرجل بمرارة:
(البقية ف عمرك يا بني)
قلت بصدمة ، وعدم تصديق :
(انتا بتقووول اييه... بقولك البشمهندس ربيع المنسي ...ومراته وردة الرحماني ...وعندهم بنت عندها حوالي عشرين سنة اسمها بحووووور ...انتا اكيد متعرفهمش صحح ؟؟؟!!!)
اقترب الرجل مني وربت برفق على ذراعي وهو مطأطىءٌ رأسه وقال بهدوء والدموع في عينيه:
(يا بني البقاء لله دا أمر الله ...أنا عارفهم ربيع دا صاحبي بقاله سنين ، من اول ما توظف واحنا سوا...بقالي معاه عشر سنين)
نظرت له بذهول ، وقلت ببلاهة :
(ازاي...لا لا ...م ممكن ...طب هما فين دلوقتي)
رد علي قائلاً:

(هما راحوا عند اللي أحسن مننا ...اتقلبوا بالعربية على الطريق السريع...لما كانوا راجعين البلد...من شهرين)

تحجرت الدموع في عيني تأبى الهبوط ، أما عقلي فتوقف عن العمل ...فزعت إلى الباب أصرخ وأنادي بأعلى صوتي وانا أضرب بقبضتي على الباب :
(بحوووووووور انتي جوااا صح. ...اطلعي يا بحووووور ...آآآه بحووووووور) ثم سحبني الظلام داخله ولم أعد أرى شيئا...
استيقظت بعدها وأنا أرى الأسلاك الوريدية معلقةً في يدي...أريد أن أصرخ ولا أستطيع...علمت حينها أن الممرضة القابعة أمام النافذة تنظر منها قد غرزت في وريدي حقنة مهدئة ...جلست ما يقارب الساعتين في المشفى على هذا الحال أريد أن أتخيل إمكانية موتهم ...لكن لا أستطيع...وبالأخص بحور ...تلك الغالية لا أتصور أنني قد ضيعتها من بين يداي ...لا أستطيع تصور أن تكون قد فارقت الحياةَ أبداً ...أشعر بوجودها...أشعر بروحها تطوف في هذه الحياة...ولكن أين لا أدري...دلف بعدها ثلاث رجال...أحدهم جارهم الذي يقطن في نفس الطابق الذي كانوا يقطنون فيه...حمدوا الله على سلامتي وأنا غائب لا أكاد أراهم من جلِّ ما أنا فيه ...ولكن نطق أحدهم بشيءٍ ردّ َ فيَّ روحي مرةً أخرى :
(البقاء لله يا بني ...فعلاً هما عملوا حادثة من شهرين قبل ما يطلعوا من القاهرة وكانوا ف طريقهم للبلد ...بس

للأسف...ما دريناش إلا لقيناهم جثتين في المشرحة في المستشفى ...أما بقا بنتهم ما حدش يعرف لها طريق)
نظرت إليهم بأمل ، وكدت أصرخ فرحاً على ذلك الخبر ، على الرغم من أنني لست متأكدا من الذي داخلي من شعور...فقلت له :
(بحوووووور !)
أومأ لي الرجل بتأكيد ، وقال :
(أتجننا عليها يا بني ...روحنا مكان الحادثة ملقينهاش ، لفينا الدنيا بحالها عليها ولا لها أثر زي ما تقول فص ملح وداب ...لحد عارف هي ماتت ولالسة عايشة)

وبعد ما قاله الرجل ، ظللت أبحث عنها ليالٍ كثيرةٍ في القاهرة بلا أدنى فائدة ، اختفت تماماً...فأصبحت أذهب إلى القاهرة كل ثلاث شهور ...على أملِ إيجادها ...وإلى حيني هذا بعدُ لم أجدها ...ظللت على عهدي أن أبحث عليها كل ثلاث شهور أبيت في القاهرة ثلاثة أيامٍ وربما أربعة ...حتى بعد وفاةِ والديّ ...لم أنسها ...وظلت وستظل الأمل الوحيد لي في هذه الحياة ...التي صرت فيها كجذعٍ مقطوعٍ من شجرة...

.

. .

.

انتقلت جثةُ الشاب إلى المغسلة...ودفن ، وحضرت جنازته.. والغريب الذي رابني بشدة ، هو كلما التقت عيني بأعين ذاك الرجل والد الشاب المتوفي ...أجد نفس النظرات مصوبها تجاهي ...غل ورغبة في الانتقام وكرهٌ يواريهما تحت قناعٍ من الهدوء ...

...

مرّت ثلاثة أيام على وفاة ذلك الشاب رحمةُ الله عليه وجهزت أنا حقيبتي ...التي وضعت فيها بعض الملابس، والنقود ، ومستلزمات السفر ...فهذا موعدي للبحث عن ' بحور ' اشتريت تذاكر للسفر عبر القطار ، واستقليته في تمام الساعة الثامنة مساءً...وصلت إلى القاهرة...وحجزت غرفةً في فندق يطلُّ على كورنيش النيل...مضيت يوماً كاملاً في البحث ، واليوم الثاني كذلك ، أما في الثالث...فكنت أشعر بشعورٍ غريب ، أحسست أن شيئاً ما سيحدث ، ولكنني لم اتواني عن النزول من الفندق لأبحث مرة أخرى في نفس اليوم ، كانت الساعة الواحدة ليلاً ، كنت أعلم أنها ساعة متأخرةٌ من الليل ...في الشتاء، ولكنني أحسست بالاختناق ...ولم اعد اطيق الجلوس في غرفة الفندق تلك ، تمشيت على كورنيش النيل ...وأنا أسبح في

بحر ذكرياتي اللامتناهي ...وتذكرتُ كم كانت بحور تعشق الجلوس على الكورنيش...وتقول انها أن أحبت شيئاً واحداً

في القاهرة فهو الكورنيش ...رغم بساطته لكنه يأسر القلوب بهدوءه وجاذبيته المختلفة ...جلست في مكانٍ هاديء وأنا لا أخفيكم شعوري...منذ خرجت من الفندق وأنا أشعر...بأحدٍ ما يتبعني...لكنني تجاهلت الأمر ، ولكن ..خطوة بعد خطوة حتى صار وراءي مباشرةً...فقلت له بثقة :
(أنا عارف إنك مش هتيجي من الباب للطق ...البني آدم المتجسد بصورة شيطان دا هو اللي وسوسلك ..إني كنت السبب في موت ابنك صح)
قال بحقد وغل :
(طب حلو اوي انك اعترفت انك السبب ف قتله ...بقا تديله حقنة تضاعف الجلطة عنده ...وأناااا اللي أمنتك على روحه ...اقرا الفاتحة على روحك يا دكتور)
ابتسمت لصدق إحساسي...وقلت له :
(وايه الفايدة من اني أقتل واحد أنا معرفهوش وما سبقليش تاريخ في القتل اصلا ؟؟!!)
أجابني ، وقد أبعد عقله عن حلبة المعركة وملَّك قلبه وحقده ورغبته في الانتقام أمره كله وقال وهو يصرخ :

(أنا معرفش ...!!! اللي أعرفه اني لازم أخد روحك تمن ما اخدت روح ابني ...الأرواح مش بالسهل كدا يا دكتور...هدوقك المرار زي ما دوقته لابني)
لم أستطع أن أنطق كلمةً بعدها ، فقد انهال علي بضربة قوية، تفجرت الدماء من رأسي إثرها...ثم دخلت في عالم من الظلام الدامس...

.
. .

.
الرؤية مشوشةٌ بشدة والإنارة تكاد تكونُ معدومة ، لا أستطيع الحَراك ...أنفاسي تتلاحق ما بين شهيق وزفير ...وأشعر بثقلٍ في رأسي كبير...أين أنا يا ترى ...قاومت ألمي الشديد وجوارحي المتخدرة والتفتُ يميناً ويساراً براسي وأنا مستلقٍ بلا حيلة ...واكتشفت أنني تقريباً في خيمةِ أحدِ البدو...فأنا أسمع صوت غنمٍ وماعز ، وارى سرجاً لحصان ، وآخر يوضع على ظهر الإبل...وبعض الصناديق الخشبية ذات الطراز القديم...لفحتني نَسمَةٌ زكية أشعلت في قلبي راحة كنت مفتقدا لها منذ زمن ، سمعت خطوات رقيقة ...كوقع الأنغام...ترصدت قلبي ، تقترب مني ...وأنا عاجز عن

الحراك التفتُ يمنةً فرأيت امرأةً ترفع طرف عبائتها السوداء الحريرية...وكاشفةٌ عن قدمها ليتسنى لها الخطو على الرمال ...ما هذا الذي على قدمها ...؟؟؟!!! كلما اقتربت خطواتها بانت لي قدمها أكثر وبان لي مصدر تلك الأنغام التي تحدثها خطواتها ...رنةً بعدَ رنة ...حتى رأيت خلخالاً يلتف حول عنق قدمها ...كلما ضربت برجلها ...حانت منه رنة توافقت مع خفقانِ قلبي المضطرب ...كل هذا وهي

وراء باب الخيمة القماشي يفصلني عن رؤية كل ما سوى هذا الخلخال الذي يرن في قدمها ...رنةً لا أريد نسيانها يوما ...وربما حقاً لن أنساها...وضعت يدها المنقوشةَ بالحناء على طرف الستارِ الذي يفصلنا ...ثم كشفت منه جزءًا صغيراً جدا ، ومالت تنظر من خلاله صوبي ، وهنا تلاقت الأعين ...كانت منقبة عن وجهها لا يظهر منها سوى عينيها اللتان غَرِقتا في محيط من الكحل الأسود ...أحاط بحلقةِ عينها ورُسمَ بيدِ فنانٍ يعجزُ أي فنان آخرَ عن تقليده...أشعر أن تلك العينان مألوفتان لقلبي...لا أدري لماذا...نظرت إلي مطولاً...ولو كانت لنا معرفةٌ سابقة لقلت لكم أنها ...كانت تنظر إليَّ كالمشتاقة...أرخت يدها المنقوشة بالحناء ، فانسدل الستار مرة أخرى ...وحال دون رؤيتها...سمعت رنة خلخالها تبتعد شيئا فشيئا فعلمتُ أنها قد غادرت ...رفعت كفي كما لو كنت سأمسك بها ...دون أن تذهب ولكنها

رحلت...أغمضت عيني ورحت في سبات عميق مرة أخرى من شدة تعبي
...
استيقظت على صوتٍ غليظ ...ففتحت عيناي بتمهل ...فوجدت رجلاً في عمر الستين...يمسك بمصباحٍ من الزجاج مشتعل بالزيت ...وهو يجلس بمقابلة المكان الذي كنت نائماً فيه ...قال لي :
(هلا بيك يا وَلَدي ...عساك بخير)

استغربت كثيراً من لهجته ، ولكن سرعان ما تذكرتُ أنه من بدو الصحراء، ولهجتهم تختلف كثيراً عن لهجتنا ، حاولت الجلوس ...فوجدته متقدماً نحوي ؛ لمساعدتي على النهوض...وضع وسادة ما وراء ظهري ، وقال :
(ايش فيك يا وَلَدي ...من رماك كدا ...الله لا يحييه !)
استغربت من سؤاله ذاك هل رماني أحدهم ، ماذا هناك ، أنا لا أذكر شيئا مطلقاً ، تنهدت بتعب وسألته :
(أنا ايه اللي جابني هنا يا عمي...يعني أنا مش فاكر حاجة)
نظر إلى بشفقة وقال :
(والله حنا لقيناك في طريقنا مرمي هنا...وسط الصحرا...ايش آخر شيّ أنت تتذكره ...أحكي التفاصيل)
رددت عليه قائلاً:

(كان في راجل عاوز يقتلني ...ظلماً بسبب سوء تفاهم ...في اعتقاده اني أنا اللي قتلت ابنه ...وأنا ما قتلتوش والله ولا قصرت معاه في وظفتي كطبيب ..بس هو كان احتمال نجاته ضعيف جدا ...في واحد الله يسامحه هو السبب في أنه يفتكر أن أنا اللي كنت السبب في دا ...ولحق بيا من الريف لحد القاهرة في هدف أنه يقتلني)

أومأ الرجل بهدوء وتفهم ، وابتسم لي قائلا :

(أنا على يقين أنك م قتلته ...هذا ناتج لشعور عندي ...بس أبي أعرف...ليش ما قتلك في وقتها...ورماك هنا بلا زاد ولا حتى مويا أي رجل ذا...وغير كدا هذي الصحراء بعيدة للغاية عن القاهرة؟؟!!!!!).

ابتسمت بسخرية، وقلت له :

(كان عاوزني أموت موته مش سهلة أبداً ، كان عاوزني أموت متعذب...من غير لا ميا ولا اكل ...افضل تلات ايام دا إن كملتهم أصلاً ، أتعذب لحد ما أموت ، فجابني فمكان محدش يعرفه ولا هيمر فيه ...والاكيد أنه نقلني بعدما فقدت الوعي)

نظر إلي الرجل متألماً لحالي ، وقال :

(لا تحزن يا ولدي...وقووول الحمد لله ، لولا الله جعل بنتي زهراء سبب ما كنا لمحناك أصلاً)
آآآه أيقصد تلك الزهرة التي طلت علي...وكان خلخالها هو الذي أكدَّ لي أنني لم أفقد السمع بعد تلك الضربة القوية على رأسي...وأكدتلي أيضاً أنني لم أفقد حياتي بعدما تلاعب صوت رنته بضربات قلبي ...
إذا هي كانت السبب في أن يجدوني...وضعت يدي على رأسي وتألمت ، وتذكرت حينها جرح رأسي الغائر ، وأن الدماء قد تفجرت ...وانهمرت على عيني ، فسألت الرجل العجوز قائلاً:
(آسف يا عمي بس أنا كانت دماغي مفتوحة مش كدا ؟!!!!!!)
أومأ لي وابتسم، قائلاً:
(ايوا...بنتي زهراء خيطت ...بتعورك الحين ؟؟؟!!!)
هززت رأسي نافياً ، وقلت :

(شكراً أنا ممتن ليكم جداً...لولاكم ما كنش زماني حي)
رفع هو يده مشيراً إلى بسباباه إلى السماء وقال :
(اشكر الله ...حنا مجرد سبب لا أكثر ...الحين جووووم معي عشان الأكل جاهز)
قلت له محرجاً :

(لو معلش يا عمي أنا مليش نفس دلوقتي ، كل حضرتك انتا وأنا بعدين متشغلش بالك بيا)
نظر إلي مستنكراً ، وقال :
(لا... ما يصير ترفض الدعوة إلى الطعام ...يلا)
قمت معه، وتناولنا الطعام نحن الاثنين فقط ، ولم يجلس معنا أحد آخر ، لربما هذا أحد عاداتهم البدوية ، جلست أنا وذاك الرجل نتبادل الأحاديث في جوٍ رطبٍ بارد ...ولكنه كان جميلاً جداً ، كما كان الرجل طيباً وخلوقاً ، أجبرتي بمجرد طيبته وحكمته أن أقص له كل ما مررت به من صعاب ، موت والدي ، وموت خالتي وأسرتها في الحادث...أوصاني بالصبر ، وأن أحاول تقبل حياتي ...وأن لا يكون ذلك عائقاً لي على إكمال مهمتي في هذه الحياة وهي عبادة الله والإلتزام بأوامره حتى يحين اللقاء...وسبحان الله على الرغم من أنه إنسان لربما أميّ ، ولكنه يفقه كثيراً مما لا نفقهه نحن...لديه وازعٍ إيمانيٌ كبير...وتجد راحة نفسية كبيرةً بمجرد حديثك معه ...يجعلك تفيض له بكل ما عندك ...ثم

يفيض هو عليك بكلمتين يضمان في ثناياهما ...الكثير والكثير من المعاني المريحة واليقين ، وكم أعاد عليَّ وصية وأكد عليَّ فيها ...وهي حسن الظن أخبرني بضرورته ، وأنه لا يمكن أن أموت إلا وأنا أحسن الظن بالله وأخبرني أن الله يقول في حديثٍ قدسي : (أنا عند ظن عبدي بي ...)

كم اطمئننت لكلامه ، وكم وددت أن تدوم فترة بقاءي هنا مدةً اطول...أدخلني خيمةً صغيرة ...غير خيمتهم التي يقيمون فيها ...ولم تكن اقلَّ من خيمتهم ...ولكن ربما لآخذ راحتي فيها أكثر ، دخلت إليها قاصداً النوم...اكتشفت أن الجزء العلوي منها يكشف...حاولت أن اكشف قدراً لأرى السماء من فوقي وأنا مستلقٍ هكذا...نجحت في ذلك ونمت ليلةً لربما لم أنعم بليلةٍ أكثر راحةً منها منذ أعوام... غرقت في نوم عميق...

ورأيت مناماً غريباً لم أرى مشابهاً له من قبل...مناماً مختلفاً عن الكوابيس التي ظللت أراها سنين متواصلة غير منقطعة ...رأيت بحور بنفس طلتها قبل سنين طويلة ...وهي ترتدي معطفها الأبيض...كان هناك شقٌ بارز في أحد جدران الخيمة القماشية ..نفس الخيمة التي أنا نائمٌ فيها ، ونفس المكان الذي أنا متواجد فيه ...كانت جالسةً تخيطه بحرص شديد ، وهي تملس عليه بخفة ...العجيب أن هناك سائل لونه أحمر كان يصدر منه ...ومع آخر غرزة غرزتها هي ...انقطع سيلان ذلك السائل نهائيا ...العجيب أنها لما قامت

من جلستها تريد الذهاب ، سمعت نفس رنة خلخال نظرت إلى قدمها فوجدت نفس شكل الخلخال الذي كانت ترتديه زهراء ، ونفسُ صوت رنته ...حاولت كثيراً أن اناديها

ولكني عحزت عن ذلك ، كانت وكأنني لستُ موجوداً معها في نفس الخيمة ، توجهت نحو كرسيٍ قابع في جانب الخيمة أمامه مرآة كبيرة ...أمسكت هي في يدها مكحلة ...وغرزت فيها عوداً رفيعاً فالون باللون الأسود ، ثم أحاطت به حدقتا عينيها ...كان شكلها رائعاً بحق...كل ذلك وأنا صامت عاجزٌ عن النطق ...اقتربت مني جداً...واقتربت أنا أيضاً منها نظرت في عيناي بعمق وابتسمت ...بينما أنا أشعر وكأنني قد غرقت لا محالة...استيقظت مدهوشاً مما رأيت ، وسبحان ربي كان وكأنه حقٌ أراه صوب عيني...تنهدت تنهيدةً عميقة ...تحمل بين ثناياها حداً كبيراً من الشوق لبحوووور لم أصل له من قبل ، وكأن ذاك الحلم قد جاء ليزيد من شوقي إليها...أضعافاً مضاعفة...

عندما استيقظت كان الليل لا زال طاغياً على الأفق...

قمت وجلست أستغفر ربي...فقد خمنت أننا في وقت السحر...ودعوت كثيراً أن أجد بحور...وأن يلهمني مكانها...وأن لا يحرمني منها فهي آخر من بقي لي من دمي في هذه الحياة الخاوية التي اهلكتني ...وقسمت ظهري واوجعتني وأفجعتني في جميع من أحب ...بكيت حتى بلَّت الدموع لحيتي ...وما أن انتهيت من دعاءي حتى شعرت بهواء متسلسل يخترق صدري ...يلامس موضع النار التي بداخله فيخمدها...ويربت على قلبي ...شعرت أنها لحظة عظيمةٌ تلك اللحظة التي دعوت فيها ...سمعت صوتاً شديا

نديا يتسلل إلى أعماق القلب فيأسرها بجماله
...وعذوبته...أخذتن قدمي إلى موضع ذلك الصوت
...اقترب بخطوات حذرة ...حتى وصلت إليه ابتسمت ،
حينما رأيت زهراء جالسة ...تمسك بماعزٍ صغير
...وتمسح قدمه المصابة ثم تربطها...لم أفهم مما قالته
كثيراً...أو أني من وصلت متأخراً...كان الذي سمعته هو
التالي :
(ما أن التقت عيني بعينك
...حتى رأيييت...
نفسي وامنياتي كلها
...بين يديييك....
مسحت على ألم لك ...علك ...
تأتي لي ...من داخلي
...وتأخذني بين جناحيك ...)

أحسست بألمٍ دفين بين كلماتها...أردت أن انسحب دون أن
تراني ، ولكنني تعثرت في رباط الخيل...وكدت أقع ولكنني
تمسكت في للحظة الأخيرة...نظرت لها ...ولكني لم أجدها
فَزِعَة .. قلت لها بإحراج من الموقف الذي وضعت نفسي
فيه:
(أنا أسف مكنتش أقصد بس...)
قطعت سيل اعتذاراتي هي وقالت :

(مش مشكلة ...أنا آسفة لو كنت صحيتك بصوتي)
تعجبت جداً عندما تكلمت ؛ بسبب لهجتها ...أنها تختلف تماماً عن لهجة والدها...أنها تتقن التحدث بالمصرية...
(لا مصحتينيش ولا حاجة أنا كنت صاحي ...ما شاء الله صوتك جميل ج...)
أمسكت لساني...الذي كان سيمطرها بوابل من المدح لو كنت أطلقت العنان له ...
أما هي فقد كانت تنظر إلى صغير الماعز الذي كان بين يديها وتمسد عليه حتى نام ...انتفضت هي واقفة ...حاملة الماعز بين يديها ...وكأنه طفلها الرضيع...وفتحت الحلقة المحيطة بالأغنام والماعز ، ووضعته برفق بجانب والدته...تعجبت لشدة رقتها ...فلم يستيقظ الماعز بينما هي تنقله لوالدته...أي فتاةٍ هذه...بدت لي غامضةً جداً...وَليت ظهري قاصداً الرجوع إلى داخل خيمتي مرةً أخرى ...فسمعتها تقول :
(ممكن تستنى دقيقة ؟!!!)
تفاجئت من طلبها ، ولكني أومأت لها ...ترقبتها منتظراً إياها...أمسكت بوعاءٍ من الفخار...وتناولت كوباً فارغاً وناولته لي ...استغربت في بادىء الأمر ، ولكنها فتحت غطاء الوعاء واقتربت مني ثم قالت :
(قرب الكوباية شوية!)

ثم صبت بداخله الحليب...حتى ملأته ، اعادته مكانه وأغلقت عليه بالغطاء وقالت :

(دا حليب...لسة مسخناه من شوية لبابا..!)

ابتسمت لها ، وشكرتها وقلت :

(تسلم ايدك ...أنا بجد كنت محتاج حاجة دافية لأن الدنيا ساقعة هنا أوي.. شكراً)

ردت علي قائلة :

(لا ولا يهمك ...تصبح على خير)

(وإنتي من أهل الخير)

ثم عدت حاملاً ذاك الكوب الدافئ إلى داخل خيمتي ...جلست أشربه بتلذذ ، فلم يسبق لي قبلاً أن أجرب حليب الماعز ...وقد كانت تجربةً لذيذةً بحق...

بعد وقت قصير...وقبل أن استغرق في النوم ، سمعت صوت العم ' والد زهراء ' ينادي علي ، أجبته بعدما اعتدلت جالساً :

(اتفضل يا عمي !!!!)

دلف مبتسماً إلي وهو يحمل شيئاً كبيراً بين يديه...فقمت لاتناوله منه ، فوضعه بالقرب من فراشي وقال:

(دي بطانية تقيلة ...اتغطى بيها منيح وهي بتدفيك أن شاء الله ، الجو اليوم شديد البرودة!)

شكرته وأنا ممتن له فبالفعل قد طرد البرد النوم من عيني ، ابتسمت بقوة...حينما عرفت من بعث العم بالبطانية...أنها

زهراء ، بمجرد أن قلت لها أن الجو شديد البرودة ، تنبهتْ في فطانةٍ منها ...تلك الفتاة ...حنونةٌ جدا وفطنة ...

صباح اليوم التالي...
شعرت بألم شديد في رأسي استيقظت من شدته ...اعتدلت جالساً...وحاولت النهوض ...شعرت بدوار يداهمني ...وضع رأسي مكان الجرح ...فشعرت بسائل دافيء ... مشيت إلى خارج الخيمة ...ووقعت عيني على زهراء وهي تعقد رباط الخيل ...في خشبةٍ مغروسةٍ في الأرض...مضيت نحوها ...أريد منها أن تطلع على مكان الجرح فأنا لا أستطيع رؤيته لأنه في رأسي من الخلف ...ولكن قبل أن أصل إليها بعدة خطوات قليلة ...استسلمت للدوار...وأغشي علي ، وكان آخر شيءٍ سمعته هو صرخةٌ فَزِعَةٌ بعد سقوطي...استيقظت بعدها بفترة...وأنا أشم رائحة زكيةً جداً...فتحت عيني ...فتلاقت عيني بعينها للمرة الثانية وهي حاثية بالقرب من رأسي...تضع أطراف شالٍ أسودٍ معلقٌ في أطرافه بعض قطع رقيقة ذهبية ...مزينة ...بالقرب من أنفي...ربما لاستيقظ من الإغماء...كانت هذه رائحة مسك...أنا أعرفها جيداً...آه ما أزكاها...وبخت

نفسي على أفكاري البلهاء التي لا تمت لهذا الموقف الصعب الذي أنا فيه بصلة...سألتها في حيرة:
(هو حصل إيه ؟؟؟!!!!)
ردت علي قائلة :
(الجرح اللي ف راسك الظاهر إنه انفتح تاني ...بس انا توليت الموضوع...أهم حاجة حاول ما تنامش عليه...عشان ما يتفتحش تاني)
سألتها:
(هو غويط للدرجادي ؟!!!)
أومأت لي وقالت:
(للأسف...آه ...استناني بقا دقيقة وراجعة)
كنت مستندا على كومة من القش ...ويظلني ظل الخيمة...لربما هي من نقلتني إلى هنا لكي ابتعد عن حرارة الشمس...
عادت تحمل بيدها كوباً كبيراً يتصاعد منه بخار ...ناولته لي ...فنظرت لها مستفهماً فقالت:
(دي أعشاب لازم تشربها كلها ...عشان هتسكن الوجع شوية...وتطرد الصداع...هو مش انتا عندك صداع بردو)
ابتسمت لها ...فكم هي إنسانة جميلة بحق ...وقلت :
(آه عندي صداع ...طب هي عبارة عن إيه)

ردت قائلة :
(دا أعشاب كتيرة أوي...يعني منها زنجبيل ونعناع وحبة البركة ويانسون ...وغيرها)
أومأت لها وشكرتها ، وجلست أشربه وأنا أتطلع إليها وهي تضع بعض مكعبات السكر في كفها المخضب ...وتمده أمام فم الحصان ...فيتناوله بنهم وتلذذ لاحظت هي نظراتي لها.. فارتبكت ، وظهر لي ارتباكها، فقالت :
(على فكرة إنت الافضل ليك تقعد في الخيمة النهاردة...عشان الشمس هتتعبك ...وممكن تدوخ تاني)
ابتسمت لها ، لما ظهر لي ارتباكها ، ورغبتها في طردي بالذوق ...لاستحياءها ...وقفت وتقدمت نحوها مبتسماً ...فخطت خطوة إلى الوراء مبتعدةً عني مددت كفي لها ، فنظرت هي إليه حائرة ، فقلت لها :
(هاتي من السكر إللي معاكي دا شوية)
ادخلت يدها في كيس السكر ووضعت في يدي بعضا منه بيدٍ مرتجفة ...وضعت يدي المملوءة بالسكر أمام..فم الحصان...فأصبح يتناوله بنهم
سألتها:
(إسمه إيه. ..أعرف أن عرب البادية بيحبوا يسموا الخيول...؟!!!)

ردت علي قائلة :
(الأدهم!)
أومأت لها ...ثم ..ألقيت نظرةً عليها ، فوجدتها مخفضةً رأسها...مسلطة نظرها على الأرض...ابتسمت ...من داخلي ...فعلى الرغم من قوتها ...وقوة تعاملها مع الظروف القوية ...في هذه الصحراء التي تعيش فيها...إلا أنها...شديدة الحياءِ والخجل...لم أشأ أنا أنا أزيد على حالها سوءاً...فقلت مستطرداً :
(هو والدك فين ...؟!)
(ايش تبي يا باسم؟!)
ابتسمت له عندما حلَّ بشحمه ولحمه ساحباً وراءه غنمة يلحقها صغيرها الرضيع ...
(عساك بخير الحين يا ولدي)
أومأت له وابتسمت وقلت :
(الحمد لله احسن بكتير...الفضل يرجع لزهراء)
رد العجوز قائلاً:
(الفضل لله وحده يا ولدي باسم)
استأذنت زهراء وقد بدأ عليها ارتباكٌ غريب ، وقالت :
(بعد اذنك يا بابا ...هروح أساعد أمي في الاكل)
ثم مشت ...ونست سوارها الذهبي اللامع ...بجوار مربط الفرس...

جلسنا...سوياً أنا والعم العجوز ...وقلت له :

(الظاهر يا عمي ...إني لازم أروح...عشان اتأخرت جداً على المستشفى وفترة الاجازة خلصت من زمان)
رد علي قائلاً بعدم اقتناع :
(شايفك مصمم ...أنت ما تدري ويش اللي مخبيلك ذا الرجل اللي كان يبي يقتلك ...بس انا بوصلك لما تجهز ... وانت وين ما تبي ترجع...احضاننا مفتوحة لأجلك يا ولدي)
شكرته بشدة ، وبقيت معهم يومين إضافيين تحت إصرار من الرجل العجوز ، إلى أن يخف جرحي قليلاً ويلتئم ...
في آخر ساعة من النهار ...توضأت وصليت وعَزَمتُ على الرحيل...لم يكن معي سوا بضعة نقود قليلة في جيبي ...فلقد تركت كل مالي في غرفة الفندق التي ما عدت إليها منذ يوم الحادث ، كنت محرجاً بشدة من أن أطلب منه مالاً ولو سلفاً...ولكنه جاء الي في خيمتي قبل خروجي واعطاني مالاً...رفضت في بداية الأمر...ولكن مع إصراره...قبلت بشرط أن يكون ديناً اسدده متى ما سنحت لي الفرصة...ركب الرجل حصانه...وجهز لي سرجاً على حصان آخر ...امتطيته ببراعة فقد كان لي تاريخٌ قديمٌ جميل مع ركوب الخيل...علمها لي والدي...

حانت مني التفاتة إلى مكان الخيم لا أدري لها سببا...فرأيت زهراء على نفس الصورة التي رأيتها بها في أول مرة ...تكشف جزءا من الستار بالكاد أرى منها عينيها السوداويتين...ويدها المخضبة المنقوشة القابضة على الستار...كانت أنظر نحوي .. إلي أجل لي أنا...رأيت في نظرتها أشياء كثيرة...لم أستطع تفسيرها...أو لم أشأ أن أفسرها ...قطع وصل شرودي نداء العم لما قال :

(أنت جاهز يا ولدي ...)

أومأت له بوجه تكاد الدماء تنفجر منه ...حياءً ...أتمنى أن لا يكون قد رآني وأنا ألقي نظرة أخيرة على الخيمة ...

وانطلقنا في مسيرة استغرقت وقتا ليس بقليل...حتى وصلنا بعدما أظلمت الشمس إلى طريق رئيسي يعيدني إلى القاهرة أولا لكي استعيد حقيبتي ثم أعود إلى منزلي ...

تمت مهمتي والآن أنا عائدٌ في القطار إلى مدينتي...الساعة الآن الثامنة صباحاً...لم يتبقى سوى القليل على وصولي إلى منزلي...

بعد الساعة العاشرة وصلت إلى القرية...مضيت في الشارع الذي بيتي في آخره ...وما إن وصلت إلى بيتي...حتى صدمت بشدة ووقفت مصعوقاً أمام ما أرى...

وجدت البيت بأكمله يعلوه سوادٌ عجيب...فتحت الباب وهرعت إلى الداخل ...وكانت الصدمة أشد وأقوى...لقد كان كل البيت محترقاً بلا استثناء...طفت بين كل

الغرف...حتى الحمام...وحديقة الزهور الخلفية الصغيرة ...كل شيءٍ احترق...كانت آخر غرفة اتفقدها هي غرفة والدي التيكنت أقطن فيها بعد وفاتها ...لم ينجو منها شيءٌ أبداً وجدت كرسي والدتي متفحما وما زال شال أبي ملفوفاً على ذراعه ...ولكنه كان متصلبا كقطعة الحديد...انهمرت الدموع في عيني حزناً والماً وقهراً على ذاك المنزل الذي عشت فيه سنينَ طفولتي ...احترق...على تلك الشهادات المعلقة في اطارٍ على الحائط...التي نلتها في كل سنين عمري التعليميةً...احترقت...على تلك الأطياف المتجسدة بصور أحبابي ...احترقت ...

كل شيء احترق وتبخر وكأنه لم يكن له يوماً وجود...لم تكن كل تلك الأشياء هي التي احترقت وحسب ...بل كان قلبي محترقاً معها ...مقهوراً ...مهزوماً ...لا حول له ولا قوة ...

انقطع صوتي ...ولا ادري بماذا أنطق إلا: " حسبي الله ونعم الوكيل"

سمعت رجلاً يناديني من الخارج...انتفضت ونفضت الرماد من على قدمي ...وخرجت له

(سلام عليكم ورحمة الله وبركاته...عامل ايه يا باسم)

كان هذا علَّام زميلي بالعمل ، أحبته بنبرة ميتة :

(وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته)

قال بنبرةٍ آسفة:

(قدَّر الله وماشاء فعل...كويس انها جات لحد كدا يا باسم)
قلت له ، باستفهام:
(هو ايه اللي حصل يا علَّام ؟؟؟!!!)
رد بحيرة :
(والله يا صاحبي أنا ماعرف...أنت كنت واخد اجازة اللي انتا بتاخدها كل تلات شهور دي ...ولما اتأخرت أسبوع...قلقت عليك اوي ...قلت زمانك تعبان لأن مش من عادتك انك تغيب عن الشغل ...فقلت اشوفك ...أول ما وصلت القرية سمعت عن حريق...بسأل الناس ...بيقولوا دا فبيت باسم...أنا كنت بقول مثلاً باسم تاني ولا بتاع ...بس اتفاجئت لما لقيته بيتك انت ...)
(يعني دا اللي حصل يا علَّام بس ؟؟!!!)
(آه والله...أنا معرفش بقا ايه السبب...ولا ايه اللي حصل...بس حمدت ربنا ألف مرة انك مكنتش لسة رجعت من السفر)
تنهدت بألم ، وقلت رابطاً على قلبي بالصبر :
(الحمد لله...الحمد لله لعله خير !)
ربت علَّام على ذراعي وقال لي :
(تعالى بقا بات في شقتي...لحد ما نشوف حل !)
أومأت له ، فأنا مضطر ...وقلت :
(تمام...بس عايز الأول أقابل الحاجة راضية...اطمن عليها)

(تمام يا باسم هستناك ع العشا متتاخرش...سلام)
(ماشي يا علَّام ....وعليكم السلام !)
ذهبت إلى بيت الخالة راضية التي تعمل عندي ، وكرقت الباب فخرجت لي
(السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...ازيك يا حاجة...عاملة ايه)
ردت بلهفة ، قائلة :
(يا خبر ...الدكتور باسم...حمدالله عالسلامة يابني ...ربنا يعوض عليك في اللي حصلك)
(الله يسلمك يا حاجة ...هو ايه اللي حصل صحيح ...دانا مغبتش إلا عشر أيام ايه اللي حصل؟!!!)
نظرت إلي بألم ، وقالت :
(والله يا بني أنا معرف ...كنت لسة رايحة ابص عليك ...على أمل انك تكون جيت لانك غبت المرة دي جامد...ولقيت النار بتاكل في بيتك اكل ...الحمد لله على اللي حصل ...والله يا بني دا الواحد قلبه انحرق ...لما شوفته كدا)
(الحمد لله انك ما كنتيش جوا يا حاجة)
(الحمد لله يا بني ...بس استنى كنت عاوزة اوريلك حاجة ملقيتش إلا هي من وسط الحريق بعد ما النار خمدت)
ثم دخلت لتحضر شيئا ما وخرجت ، وناولته لي ، التقطه بيدي ...وصدمت مما رأيت...أتعلمون ما رأيت...لقد

وجدت بطاقة التعريف الشخصية ...لذلك الرجل الذي توفي ولده منذ اسبوعين تقريباً...ولا تلوموني في الذي حدث بعد ذلك ...ذهب إلى قسم الشرطة...وقدمت فيه بلاغاً ...وأجرة معه كثيراً من التحريات...وبمساعدة المقدم نعيم...صديقي الحميم...وبحنكته تم الإعتراف من قبل الرجل...وتم القبض عليه ، وحكم عليه بحبسٍ مشدد لإحراق منزلي ...مجرد حبسه لم يشفي غليلي...ليست مشكلتي معه هو ...اذيتي ...فلقد آذاني وكدت أموت بسببه لولا لطف الله ...كل هذا ولم أكن لاشكوه أو أقدم فيه بلاغاً...لكن أن يحرق كل ذكرياتي التي أعيش على ذكراها ...ويقتل تلك الأطياف التي تحول حولي تطمئن وهمي أنهم لم يموتوا ...هذا الذي لم أستطع الصبر عليه ...كانت داخلي نارٌ مستعرة...وكأنه قد أحرق روحي وليس مجرد بيتي الذي لا أملك سواه...قضيت عدة ليالي في منزل صديقي علَّام الذي يقطن مع والديه ...والحق يقال لقد رحبا بي ترحيباً هائلاً...ورفضا رفضاً قاطعاً أن أنتقل إلى شقة مفروشة بجوار المستشفى التي اعمل بها ...مكثت معهم حوالي ثلاث شهور...شعرت فيهم باختناقٍ شديد لا أدري لما...لا أعتقد أن السبب هو مكوثي بينهم...لان هذا الضيق قد راودني منذ وطأت قدمي داخل القطار المسافر من القاهرة ...أو ربما كانت بدايته توديع للأسرة التي أنقذتني من الموت...غداً هو يوم ذهابي للقاهرة كما اعتدت للبحث عن بحور...قبل ذهابي

طرأ لي شيء في عقلي...وهممت على القيام به فوراً...اتصلت بصديقي المقدم نعيم ...وطلبت منه أن يسمح لي بزيارة الرجل الذي أحرق داري ...وصلت إلى هناك

وفي داخلي الكثير والكثير من الأسئلة...قابلته ونظرت في عينيه وما رأيت فيهما تلك النظرة المليئة بالحقد والكراهية والرغبة في الانتقام...بل رأيت انكساراً وألما والكثير من الندم...لم أنطق ببنت شفة ...وتمهلت ولم أسأله عن شيءٍ حتى قال هو لي بسخرية :

(إنت جيت لي يا حضرة الدكتور...؟!...ميكونش مثلاً عشان تشمت فيَّا ...؟!...ما هو من حقك بردوا)

سألته بجمودٍ قائلا:

(لا والله...مش دا السبب...واظنك عارفني من اليوم اللي وثقت فيك ورحت بيتك عشان أنقذ ابنك ...)

نظر لي بتركيزٍ شديد ، وقال :

(اومال جاي ليه بقا ...؟!!!!)

نظرت صوب عينيه...وركزت النظر فيهما ، وقلت:

(عشان اقولك ...اني مش أنا اللي قتلت ابنك ...وعايز اسألك سؤال...فين روشتة الدوا اللي كتبتلك عليه واللي انتا اتهمتني اني قتلت ابنك بيها ...؟؟؟!!!!)

ارتبك ورد ،قائلا :

(بتسأل عليها ليه يعني ...؟!!)

(ممكن مثلاً بسأل عشان ...أتأكد من اللي كتبته يمكن فعلاً كتبت حاجة غلط السبب في موت ابنك بالفعل)
رد قائلاً بحيرة ووجل:
(والله مش عارف انا مهتمتش يعني ...بعد ما اكتشفت انك قتلت ابني ما هتمتش لأي حاجة إلا أني انتقم منك وخلاص !)
قلت له بسخرية، واستهزاء :
(والله انتا لو كنت ركزت شوية ...كان ممكن تجيب حقك المدعى ...بأنك تاخد الوشتة اللي كتبتها لابنك ...وتطلع بيها على قسم الشرطة ...بس انتا ركبت الرغبة في الانتقام ف عقلك ومكنش قدامك إلا كدا ...اني أموت زي ما إبنك مات...انتا حتى مفكرتش إيه اللي هيخليني اقتله وأنا معرفهوش أصلا ولا كان بيني وبينه حاكة ف يوم من الأيام).
نكس الرجل رأسه ، وقال :
(طب وأنا ايش ضمني انك مكنتش عاوز اقتله بجد ...وبعدين أنا معنديش ابن غيره...هو حتى الولد ع الأربع بنات)
نظرت له بدهشةٍ من هذه المعتقدات الباطلة ، والتي لا تمت للحق بصلة ولا زالت راسخةً في عقول الناس ، وقلت :
(انتا بجد مش معقول ...هو ابنك دا ملاك واتقتل...والبنات دول نعمة بس انتا مش حاسس بالنعمة اللي بين ايديك...تاني

حاجة...انتا كنت شايف ابنك عامل ازاي ...واللي حصله دا اعراض جلطة ...مش جات ف ساعتها وراحت ...دا قعدت ساعات معاه وانتوا مكنتوش حاسبن بحاحة ...ومرور الوقت دا كله مكنش ف صالحه أبدا...تالت حاجة والأهم إن خلي عندك قناعة ...إن دا كله تدابير من ربنا...وهو دا أجله ، ولو كنت أنا أو غيري زي ما بتقول قتلناه ...مكنش دا هيغير ف قضاء الله حاجة ابدا)

طأطأ رأسه لائماً نفسه ولم ينطق أبدا ، فانتقضت قائماً ، وظلَّ هو جالساً مكانه ينظر إلى اللاشيء...كنت أحس بموقفه ، وبجلده لذاته الذي ابتدأ منذ هذه اللحظة ، فأخرجت من جيب معطفي ورقةً وفردتها أمامه ...وقلت له :

(الورقة ما بين ايديك أهي لو عاوز تشتكي ...!)

أمسك أطرافها وشقها نصفين ، ثم نظر لي وابتسم بألم وقال:

(أنا واثق فيك ...بس للأسف الوقت متأخر...أنا طالب بس منك تسامحني...عشان لو مت)

(ليه ؟؟؟!!!)

قلتها أنا ، فردَّ علي قائلاً:

(دكتور اسمه ت...)

(تامر...الدكتور تامر...عارف أنه السبب...!)

ثم ابتسمت بسخريةٍ وألم وقلت له :

(هو بيكرهني جداً...وأنا بالنسباله عدوه اللدود...ع العموم...كويس إنك عرفت الحقيقة!!!!)

ثم انصرفت ماضياً ؛ وعزمت على السفر إلى القاهرة ...قضيت فيها ثلاث ليالٍ متواصلة كالمعتاد ...لم يتغير شيء...أصول وأجول في شوارعها ...وأسلك طرقاً جديدة...بلا أدنى فائدة...جلست على كورنيش النيلِ منهارا...ذرفت فيها دموعاً كثيرةً ...وأنا أشعر بأني فقدتها...

كان شعوراً مؤلماً بشدة...ألماً منقطع النظير ، شعرت باختناقٍ شديد وكأنني اتنفس من ثقب إبرة...وكأن روحي تصَّعدُ إلى السماء...كانت تلك الليلة الأخيرة التي كنت سأعود إلى قريتي بعدها ، ولكن ولأول مرّة أشعر وكأنني لا أريد أن أعود إليها...كما أنني لا أستطيع أن أبقى في هذا المكان الذي أبحث فيه هباءً عن فقيدتي الغالية...وحينها وبينما أنا أعتصر عيني من الدموع العالقة بها...حتى طرأ في بالي أن أذهب إلى تلك الأسرة التي أنقذتني من الموت قبل ثلاثة أشهر...

كنت متردداً في البداية...ولكن على الرغم من بعد المسافة الشاسع...فقد صممت على الذهاب ودفعني إلى ذلك قسوة الألم داخلي...

في اليوم التالي...

صليت الضحى في الساعة العاشرة صباحاً ، وانطلقت في مسيرة ساعات متتالية داعياً الله أن لا أتوه عن ذاك المكان الذي لم ارده إلا ممرة واحدة...

وبفضلٍ من الله وصلت إلى هناك...وسرت حتى بانت لي خيمتهم المنصوبة على الرمال...تقدمت بخطوات متوترة...وبقلب يتراقص فرحاً ...استغربته جداً...لا أدري هل كان سببه أني افتقدت دفء تلك الأسرة التي احتضنتني في اشدِّ ساعات عسري...أم أن هناك سببٌ آخر...
اقتربت من الخيمة...ولم يكن هناك أحدٌ خارجها...وقبل أن أنادي على العم لاعلمهم بمجيئي المفاجئِ ذاك ، حتى خرجت ابنته زهراء...!
وقعت عينيها علي فارتدت خطوة فزعةً إلى الوراء ، واتسعت حدقتا عينيها السوداء...ثم تعلقت نظرها بعيني ...ربما الصدمة ، أو عدم التصديق..والاندهاش ...
ابتسمت لها وقلت متأسفاً :
(أنا آسف...كنت لسة هنادي ..بس انتي طلعتي فجأة...شكلي خضيتك !)
أشاحت بعينيها بعيدا عني ...وأصبحت تفرك أصابعها المخضبةَ بتوتر...وقالت:
(أنا اللي آسفة ...شكلي أنا اللي خضيتك بخروجي المفاجئ...حمدالله عالسلامة يا دكتور...!)
ابتسمت لها ولذوقها في الكلام...وقلت :
(الله يسلمك يا آنسة زهراء...عمي عابد موجود ولا لسة مرجعش)

(اتفضل هنا عقبال ما يجي...إن شاء الله شوية صغيرين ويحضر)
ثم أشارت لي على مربوعةٍ بداخل خيمةٍ لهم خاصةٍ بالضيوف...ابتسمت لها ثم دخلت الخيمة وجلست ...دلفت أمها بعدها بعدة دقائق بعد أن رحلت هي ، ورحبت بها والدتها السيدة ' نُوَار' وهي تحمل إبريق القهوة بيدها واليد الأخرى فنجان تصب بها القهوة لي ، ناولتني بعضا من الرطب...طيب المذاق...ووضعت أمامي كوباً من الماء المنعش ...أندهشت لبرودته في هذه الصحراء ونحن في افصل الربيع...فسألت السيدة ' نوار ' قائلا:
(هي الميا باردة ازاي عندكم كدا ...أظن يعني إن مستحيل يكون عندكم تلاجة أو فريزر هنا ...معلش فضول بقا هههه ؟؟؟!!)
ضحكت السيدة بمليء فمها ...وقالت بوداعة:
(حنا بنحطها داخل رمال الصحراء...ونتركها فترة منيحة...بتبرد لحالها ...وتصير مثل ما انت شايف!)
أومأت لها .. وأنا مستعجبٌ من هذا الدهاء البدوي...سبحان الله ...لم يكن بعدهم عن مجتمعنا وانفرادهم بالصحراء ..سبباً ليكونوا جاهلين ، فهم علماءٌ بخبرتهم المتميزة...ولأول مرّةٍ أتيقن أن تحديد البشر للنجاح...من طريقٍ معين يحصرهُ المجتمع بفكره المتحجم هو شيءٌ

خاطئٌ جداً...فلو استخدمنا عقولنا وتأملنا في حال البشر حولنا...لرأينا لكل في مجاله نجاح وتوفيق يصطفيه الله فيه وانا كطبيب جراح كثيرٌ ما تواجهني حالات مستعصية منها من يموت على يدي...وأغلبها بفضل من الله من يرزقني الله أن أكون سبباً لاحياءه...دوماً ما أتذكر هذه الآية التي يقول الله فيها : (ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً...)
واحتسب تعبي فيها...في ابتغاء مرضات الله عز وجل
...وعلى الرغم من أجري الزهيد الذي اتقاضاه جراءَ عملي في تلك المستشفى الحكومية...فكله يهون مقابل أن يجازيني الله ...كلما شفيَ أحد على يدي ...
وكذلك هذه الأسرة الجميلة ...أتأمل في حالها كثيراً منذ اليوم الأول الذي قضيته معهم ...واستفقت من مرضي على أيديهم...كيف يتعاملون إذا ما مرض أحدهم ؟!! ، أنى لهم هذه الخبرةُ في علاج أنفسهم ..وأنعامهم ؟!! ، كيف ينصبون تلك الخيم الشامخة وسط الصحراء بطبيعتها القاسية ، كيف يصمدون مع غلظة مناخها وتقَلُبه ، كيف يصبح طعامهم بهذه اللذاذة وهم يصنعونه باستخدام وسائل بسيطة تبدوا صعبة بالنسبة لي...ومع كل هذا...لا يؤثر ذلك على زينتهم واهتمامهم الجلي بأنفسهم...حتى تلك السيدة المدعوة نوار...عمرها على ما اعتقد يتعدى الخمسين...ويدها مزخرفة بالحناء بطريقة باهرة ومبدعة ، واصابعها المخضبة تلتف حولها العديد من الخواتم الذهبية اللامعة ،

وكذا الكثير من الاساور الذهبية تعانق معصمها ...وعيناها العسليتين مرسومتان بالكحل الأسود...حقاً أنهم لناجحين بطريقتهم المميزة ...نجاحاً كبيراً...فهم لا ينتظرون شهادةً تثبت نجاحهم ، ولو ينتظرون تصفيق الجمهور لحسن أدائهم ، ولا ينتظرون التفاف المهنئين لتوفيقهم...و تفوقهم ...هذا الذي سميته أنا...بمصطلح (النجاح المميز) ...!!!

...

حضر العم عابد بعد فترة ، رحب بي ترحيباً هائلاً ، فرحاً بقدومي جداً...بينما أعدت السيدة نوار وابنتها زهراء الطعام...جلسنا نتناوله أنا والعم عابد ...في حبور ...وكان أول ما عكر تلك الجلسة الجميلة هو سؤال طبيعي جداً طرحه العم عابد عليّ بينما أنا التقطت كوب الماء لارتشف منه..

(كيف حالك يا بني ...وايش أخبار وظيفتك ودارك...طمني عليك يا باسم ؟!)

ابتلعت غصة مريرة في حلقي وقصصت له كل ما مررت به بدايةً برؤيتي لبيتي الذي تحول لرماد..ونهايةً بزيارتي للمسؤول عن هذا الحادث الذي آلمني ...وكم بدا حزنه على كل ما اقصه له من أحوالي...حتى قال هو :

(والله يا ولدي ما ادري وش أقولك...بس استعوضه عند ولي العوض)

ثم ران علينا صمت لحظات ، قطعه العم قائلاً:

(وش رايك...تقعد معنا هنا ...فترة تشتغل معي في مقابل أن أزوجك بنتي زهراء ؟؟!!!)
صدمة نخرت روحي ...وشلت تفكيري ...واقتلعت جميع أحاسيسي ...فما عدت احس بأي شيء...وكأنني ف عالم آخر ...نظر إلي العم عابد يستشف رد فعلي ،لكني لم أبدي قبولاً أو رفضا ، فنظر إلى بعمقٍ وتركيز ثم أردف قائلاً:
(أبي أعرف ايش رايك ...ولك حرية الإختيار...سواء قَبلت أم رَفضت !)

.

. .

.

أنظر إليها وهي تمتطي فرسها برشاقة عاليةً جداً...ثم تمسك بلجامه وترفعه عالياً وتصيح به:
(يَاااااااااا)
فينطلق ملبيا رجاءها في هذه الصحراء الشاسعة...مدركاً واجهته بدون بوصلةٍ أو هدىً يهتدي به...
كانت صورةً جميلةً جداً لها ...وهي تركض بحصانها فارسةٌ ملثمة...تتقاذفها الرمال...وتشق هي طريقها بينها بلا خوف أو وجل.. تعانقها الرياح...كأسيرةٍ لتوها التقت بالحرية...
أليوم هو عقد قراننا ...؟؟!! أستصبح هي اليوم زوجتي ؟!

آآآه يااارب...ما زلت لا أتصور ذلك...فصورة الغالية بحور لا زالت متعلقة بذهني ...ولا زال طيفها ساكناً بقلبي...وما زلت أشعر بوجودها...وأحس به...وأأبى إلا أن تظل بين ثنايا فؤادي...ولن يسكن أحد مكانها يوماً مهما بلغ من مكانته عندي...

موافقتي على الزواج بها كان منذ أسبوعٍ ...فما كان مني أن أرفض طلباً لذاك الرجل الطيب الذي لم يتأفف لحظة من تواجدي بينهم ...وما كان مني أن أرفض ابنته التي كانت سبباً في بقاءي على قيد الحياةِ إلى الآن ...فلولا أن جعلها الله سبباً...لإغلاق جرحي ...لظلت رأسي تنزف حتى...ارتوت بها الأرض تحتي...وجف الدم في عروقي...وتصلبت شراييني...فلست أنا عديم الأصل...والوفاء...

قررت أن احافظ على عقدنا ذلك حين أن يتم حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا ...

تجمَّع عدد من الرجال والنساء من عائلة هذه الأسرة التي سأكون صهرها...من أهل البادية...وجاء شيخ كبير ليعقد قراننا...ارتديت عباءة وبشتاً جديداً كان هديةً أهداني إياها والد العروس...ووضعت على رأسي شماغاً وعقالاً ...فهذا هو اللباس الرسميُ عندهم...جلست وفي مقابلتي والد العروس..العم عابد...وبجواري الشيخ...تم العقد وما أن نطق الشيخ بآخر الكلمات التي ستجعلها حليلتي ...حتى

صدح صوت الزغاريد من الخيمة الداخلية التي تقطن بها النساء...لا أعرف حال العروس الآن...وهل هي فرحةٌ بهذا العقد ام حزينة...أم أنها لا تدرك مشاعرها كما هو حالي...كثيرٌ من القبل والاحضان والمباركات تلقيتها من أهلها وانا كالغائب ...على شفتي شبح ابتسامة تنكرت بها مشاعري...خرجت برفقةِ أهلها ...إلى الخارج حيث أقيم حفلُ الزفاف...على طريقتهم ، عرضٌ مميزٌ للاحصنة ، ثم مبارزة بالسيوف بين شبابهم ، وشيبانهم يغنون بكلمات جهلت منها جزءًا بسبب لهجتهم ، والجزء الآخر فهمت أنه تهنئة للعروسين أنا وزهراء...ورجلان يمسكان بالدف ويضربان عليه...أما أنا فقد جلسنا أنا وعروسي التي ترتدي فستاناً أحمر وتغطي وجهها بطرحةٍ من نفس اللون ...داخل حلقة واسعة من النيران شعلتها هادئةٌ بسيطة ...تزين محيانا في منظرٍ بديعٍ جميل...

انتهت مراسم الزفاف...والتقطت يدها بتوتر شديد ثم سرنا حتى وصلنا إلى خيمةٍ جديدة كبيرةٍ نوعاً ما قد نصبها والدها خصيصاً لنا...دلفت أنا وهي إليها...واخترقت رائحة البخور أنفينا...وقفتُ بها في منتصف الخيمة ...وهي مطأطأةٌ رأسها...بخجلٍ شديد أسمع صوت أنفاسها المتوترة بينما هي تمسك طرف طرحتها الملقاةِ على وجهها تتأكد هل يوجدُ إنشٌ واحدٌ بعد يظهر من وجهها ...داعبت نسمة هواء لطيفة قد تسللت من أسفل باب الخيمة القماشي

وجهينا...صافحت وجهي فبردت حرارته المشتعلة...ورطبته...وتأرجحت طرحتها بلطف من فعلِ تلك النسمة ...مددت يدي وأنا أقف في واجهتها بالقرب منها لا يفصل بيننا الكثير..إلى طرحتها فخطت خطوة صغيرة إلى الوراء...وهنا رنت خلاخيلها...في قلبي قبل أذني...!
ما زلت ممسكاً بطرف طرحتها الحمراء الزاهية...عازماً على كشفها...سحبتها برفق ...وضربات قلبي تكاد تصم أذني من قوتها ...حتى استقرت طرحتها كاملة في يدي...فانكشف لي شعرها الأسود ، المنسدل على كتفيها بغنج ...ولا زلت لا أرى سوى بدايةِ جبينها الذي يستقر عليه عقدٌ ذهبي بدايته جبينها ونهايته وراء شعرها الأسود...مددت يدي إلى أسفل ذقنها ورفعته برفق...فبان لي وجهها كاملاً كما يبان للكون كله القمر ليلة نصف الشهر..خفق قلبي بقوة وذهول...فمسحت عينيها المغمضةَ بطرفي إبهامي...فارتفع جفنيها عالياً...واستقر بؤبؤ عينيها على بؤبؤ عيني ...وهنا كانت الصدمة...!!!!!!!!!!
(ب...ببب...ببحووووووور؟!!!!!)
نطقت بها بذهول وصدمة...وكثير من المشاعر التى لا أدراها

فنطقت هي بحال لا يختلف شيئاً عن حالي قائلة :
(بيبباسم ...؟ مستحيييييييل !!!)
ضممتها إلي...ضممتها بقوة...قبل أن تقع من بين يدي وهي مغشيٌ عليها...وددت لو لحقت بها...لاخفف من على قلبي حمل هذه الفرحةِ التي لا اتحملها ...جلست الأرض وربت على وجنتيها وجبينها برفق...والتقطت زجاجة من المسك كان في جيب عبائتي وفتحته لتفوح رائحته وتتغلغل في أعماق قلبها ...علها تستفيق...وتفيقني من هذا الحلم السعيد الذي أنا فيه ...ظللت كثيراً أتطلع إليها ببلاهةٍ وعدم تصديق...حتى فتحت جفون عينيها ...انهمرت دموعها ؛ فانهمرت دموعي...وامتزجت الدموع بشوق كبير وفرحة وسعادة اللقاء بعد الكثير والكثير من الفراق...ما أجمل ساعةَ العوضِ وما ألذها حين تكون بعد سنين من الإخفاقِ والقسوة...وحين تحقق أعظم أمانيك وأجلها...
...

.
. .
.
لذا ومن بعد ذلك اليوم الذي مضى عليه عامان متتاليان من الفرحة والبهجة والنجاح والسعادة والانتشاء ، صرت لا أدعو دعاءً لنفسي حتى أدعو الله لكل محرومٍ يائسٍ بائس ...

أن يتذوق من جزيل عطاء الله ...وأن يتذوق جميلَ عوضه...
فما عشته من مرارةٍ وألمٍ قد مسح تماما وانساني إياه ربي بعد السعادةِ التي ناولني إياها الله...
لقد عرفت أن عزيزتي بحور كانت قد فقدت الذاكرة بعد الحادثة التي قد أصيبت بها هي وخالتي وزوج خالتي...ولكن من فضل ربي أن قد عثر عليها ذاك الرجل الطيب المدعو عابد حينما كان في زيارة لمنزل أخيه في القاهرة...رآها قدراً واعتنى بها...وقد كانت تستردُ عافيتها شيئاً فشيئا وهي معهم برعايتهم...حتى أنها أخبرتني أنها كانت تظنُ أنها تتوهم أنني إبن خالتها باسم...وأخبرتني أن ما رسخ في عقلها أنها تتوهم بالفعل هو تغير شكلي الظاهر ، حيث نمت لحيتي التي كنت أحلقها بشكلٍ دوري...وقد كان لمرور كثيرٍ من السنين سبب في ذلك... . إلا أن شعورها بأنني قد أكون أنا ابن خالتها المفارَق ...هو الذي دفعها للموافقة...لعل نارَ قلبها المتأججة تهدأ قليلاً...بعد كل هذه السنين... .
إنها الآن لم تعد فقط لابنة خالتي الحبيبة...بل إنها أيضاً زوجتي وأم بنتي التي سميتها رنيم...انتقلت أنا وهي للعيش في القاهرة...وقد ازدانت جوانبها الموحشة لنا بعدما عثر كل منا على نصفه المفقود...أنعم الله علي...واشتريت شقة صغيرةً بعض الشيء في أحد العمارات التي تطل على

كورنيش النيل...أما ذاك العم الطيب فقد اهداني شقةً أخرى في إحدى العمارات في منتصف المدينة...كانت ملكاً له منذ سنين ؛ فحولتها إلى عيادة طبية يتوارد عليها المرضى يوماً بعد يوم...ذاع صيتي في هاتين السنتين...وأصبحت العيادة بفضل من ربي تضج بالمرضى يومياً...ليتابعوا فترة علاجهم مع ذاك الطبيب الشاب الذي كبرت خبرته بالرغم من صغر سنه...

...

الآن ولجت حبيبتي الغالية إلى غرفة الكشف التي اقبع أنا بداخلها...وتعلوا وجهها إبتسامة واسعة رأيت جمالها بعدما كشفت عن نقابها الأسود...قمت واستقبلتها وضممتها هي وصغيرتي الجميلة التي كانت تحملها على ذراعها بحرارة،

(إيه المفاجئة الروعة دي يا بحور...دا أحسن حاجة حصلت النهاردة؟!)

ابتسمت وهي تملس على شعر رنيم وهتفت بحياء:

(دي أبسط حاجة اقدمهالك...مش يلا زمانك تعبت أوي النهاردة اتأخرت دي الساهة بقت سنة ولسة مروحتش ؟!)

(معلش ...بس كان لازم أتمم الكشف لحد الآخر...في ناس محتاجينلي كتير...لعلي أكون سبب في علاجهم)

ابتسمت بود وقالت :

(ربنا يجعله في ميزان حسناتك يااارب....طب إيه مش هنروح عند بابا عابد النهاردة ؟!)

ابتسمت لها ، ثم قلت لها بعتاب
(مش هنروح في حتة إلا لما تمسحي اللي ف عينك دا
...هو أنا مش قلتلك معتيش تخرجي بالكحل بعد كدا يا
بحور...دانا مش مصدق اني خليتك تبطلي تلبسي الخلخال
برا البيت)
علت ضحكتها الرنانة...كمعزوفة جميلة عرفت طريقها نحو
قلبي . ..وقالت :
(هههه... متزعلش يا بسومي انتا عارف إن دا صعب عليا
عشان اتعودت عليه من عيشتي لسنين في البدو...بس عشان
خاطرك حاضر همسحه...)
ابتسمت لها ، وقلت:
(ههه...أيوا كدا انتي تبقي حبيبتي المطيعة...حبيبتي التي
عشقتها قبل عشقي لرنة خلخالها) .

تم بحمد الله تعالى

★★★★★★★★★